

الشفاعة (٢) بين السلب والإيجاب

الشيخ محمد فاضل معرفته - قم

نصوص دينية :

وفيما يلي نصوص شرعية ، تثبت الشفاعة كضرورة اسلامية ، اعترف بها أئمة الفن ، واثبتوها في جوامعهم ، التي هي مراجع المسلمين منذ الصدر الاول ولا تزال . وقد تداولها العلماء وتلقوها بالقبول خلفاً عن سلف ، الامر الذي لا يدع مجالاً للتشكيك فيها من الناحية الدينية .

وهذه النصوص كثيرة جداً ، بالغلة حد التواتر ، سواء أكانت صادرة من رسول الله - صلى الله عليه وآله - ونقلها الاصحاب والتابعون لهم باحسان وهكذا من بعدهم بصورة متظافرة . امن أئمة اهل البيت - عليهم السلام - مباشرة ، وان كان حديثهم يرجع الى حديث جدهم في المآل .

ونحن نورد هنا من كلا النوعين ، ولكن بصورة نموذجية ، خوفاً من الاسهاب ولان فيها كفاية ، وطالب الزيادة يمكنه مراجعة المصادر المشار اليها .

١ - روي البخاري : حدثنا يوسف بن راشد ، حدثنا احمد بن عبد الله حدثنا ابو بكر بن عياش عن حميد قال سمعت انسا رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اذا كان يوم القيامة شفعت فقلت يارب ادخل الجنة من كان في قلبه خردلة فيدخلون ، ثم اقول ادخل الجنة من كان في قلبه ادنى شيء .» (١)

(١) ص ١٩٦ ج ٢٥ من صحيح البخارى بشرح الكرمانى . كتاب التوحيد باب كلام الرب

عز وجل يوم القيامة مع الانبياء وغيرهم ١٩٧ - ١٩٨ .

وروي عن جماعة من أهل البصرة أتوا أنساً يسألونه عن حديث الشفاعة ، فحدثهم بها في حديث طويل .. «قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم- : فأستأذن على ربي فيؤذن لي ويلهمني محامداً حمده بها .. وأخرله ساجداً ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع ، وسل تعط ، واشفع تشفع ..» (١)

٢ - وروى مسلم - في جملة احاديث الشفاعة التي يرويها - عن ابي سعيد الخدري قال : «قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : اما اهل النار الذين هم اهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - او قال بخطاياهم - فأمانهم اماتة حتى اذا كانوا فحماً اذن بالشفاعة ...» (٢)

٣ - واخرج احمد والترمذي وابن جرير وابن ابى حاتم وابن مردويه والبيهقي عن ابي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في قوله تعالى : عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً - او قال سئل عنه - قال : «هو المقام الذي اشفع فيه لامتي» (٣)

٤ - واخرج ابن ابى شيبه عن سلمان - رضى الله عنه - قال : «يقال له - اي لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم - : سل تعطه واشفع تشفع . وادع نجب . فيرفع رأسه فيقول : امتي - مرتين او ثلاثاً - فقال سلمان : يشفع في كل من في قلبه مثقال حبة حنطة من ايمان ..» (٤)

٥ - واخرج ابن جرير عن ابن مسعود ، قال : «ياذن الله تعالى في الشفاعة فيقوم روح القدس جبرئيل - عليه السلام - ثم يقوم ابراهيم الخليل - عليه السلام - ثم يقوم موسى وعيسى - عليهما السلام - ثم يقوم نبيكم - صلى الله عليه وآله وسلم - واقفاً ليشفع ، ولا يشفع أحد بعده اكثر مما شفع ، وهو المقام المحمود ..» (٥)

* * *

(١) البخارى ج ٩ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) مسلم ج ١ ص ١١٨ وراجع ص ١١٥ - ١١٦ .

(٣) الدر المنثور ج ٤ ص ١٩٧ .

(٥) الدر المنثور ج ٤ ص ١٩٨ .

(٤) الدر المنثور ج ٤ ص ١٩٨ .

٦ - روي علي بن ابراهيم عن ابيه عن الحسن بن محبوب عن زرعة بن محمد عن سماعة بن مهران - والسند صحيح - عن ابي عبد الله - عليه السلام - قال : سألته عن شفاعته النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم القيامة ؟

قال - عليه السلام - : «يلجم الناس يوم القيامة العرق فيأتون الانبياء العظام واحداً بعد واحد حتى ينتهوا الى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فيعرضون انفسهم عليه ويسألونه - اي الشفاعة - فيقول : انطلقوا ، فينطلق بهم الى باب الجنة ويستقبل باب الرحمن ويخرساجداً قيمك ما شاء الله ، فيقول الله عز وجل : ارفع رأسك ، واشفع تشفع ، وسل تعط . وذلك قوله تعالى : عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً» (١).

٧ - روى الصدوق عن طريق الاعمش عن الامام الصادق - عليه السلام - قال : «اصحاب الحدود مسلمون ، لا مؤمنون ولا كافرون . فان الله تعالى لا يدخل النار مؤمناً وقد وعده الجنة ، ولا يخرج من النار كافراً وقد أوعده النار والخلود فيها . ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، فاصحاب الحدود فساق .. لا يخلدون في النار ويخرجون منها يوماً . والشفاعة جائزة لهم وللمستضعفين اذا ارتضى الله عز وجل دينهم» (٢)

٨ - روى الصدوق عن طريق التميمي عن الامام الرضا عن آبائه عن علي - عليهم السلام - قال : «من كذب بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم تنله» (٣)

٩ - روى العياشي باسناده الى عبيد بن زرارة قال : «سئل ابو عبد الله - عليه السلام - عن المؤمن ، هل له شفاعة ؟ قال : نعم ، فقال له رجل : هل يحتاج المؤمن الى شفاعة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - يومئذ ؟ قال : نعم ، ان للمؤمنين خطايا وذنوباً ، وما من احد الا يحتاج الى شفاعة محمد يومئذ .

قال : وسأله رجل عن قول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - «اناسيد ولد آدم ولا فخر» ؟ قال : نعم ، يأخذ حلقة باب الجنة فيفتحها فيخرساجداً ، فيقول الله : ارفع رأسك ، اشفع تشفع ، اطلب تعط ، فيرفع رأسه ثم يخرساجداً فيقول الله : ارفع رأسك ، اشفع

(١) تفسير القمي ص ٣٨٧ . بحار الانوار ج ٨ ص ٣٦ .

(٢) الخصال ج ٢ ص ١٥٤ . بحار الانوار ج ٨ ص ٤٠ .

(٣) عيون اخبار الرضا ص ٢٢٥ . بحار الانوار ج ٨ ص ٤١ .

تشفع ، واطلب تعط ، ثم يرفع رأسه فيشفع ويطلب ويعطى» (١)

* * *

هذه نماذج عن نصوص الشفاعة لا تقصر عن اثباتها موضوعياً . وهى - كما ترى - صريحة فى موقف النبي الكريم يوم القيامة حيث يبتهل الى الله عز وجل ان يغفر خطايا وذنوب ارتكبتها المخطئون فيشفع فيهم ، سواء من دخل بذنبه النار ومن لم يدخل ، فيقبل الله شفاعته يومذاك ابداء لمقامه الكريم بين الامم على الاطلاق . فان كان الشيخ محمد عبده يريد هذا المعنى فليس تأويل بل هو صريح المقصود بالشفاعة فى هذه النصوص . كما ان التأويل الذي ارتكبه الطنطاوي مخالفة صريحة لجميع هذه النصوص الدالة على وقوع الشفاعة يوم القيامة . وهكذا لو التزمنا بحجية نصوص الكتاب والسنة القطعية فلا مجال للانكار - كما يراه وجددي فى (دائرة المعارف) - فقد اصبحت العقيدة بالشفاعة من ضرورة دين الاسلام . قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «من لم يؤمن بشفاعتي فلا اناله الله شفاعتي» (٢)

التوسل او الاستشفاع :

التوسل : تدرع صاحب الحاجة الى الوسيلة الشافعة لنجح مطلوبه عند الله ، اما فى الآخرة - كما مر فى حديث استشفاع الامة بنبيها الوجيه عند الله فى عرصات القيامة - واما فى الدنيا ، لحاجة حاضرة او مغفرة فى الآخرة ، فيبتهل العبد الى مولاه الكريم ، ويتضرع لديه فى قضاء حاجته ، مستشفعاً بجاه النبي الأعظم - صلى الله عليه وآله - واهل بيته الأطهار - عليهم السلام - حيث هم الوسائل المكرمون الى الله تعالى . «ولو انهم اذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً» (٣) . وما هو الهدف من هذا الحضور عند اعتاب النبي الكريم الا التوسل بجاهه الوجيه عند الله ، والتبرك بعنايته المباركة .

وقد سبق : ان لقداسة المكان - كالمسجد والبقاع المقدسة - وشرافة الزمان

(١) بحار الأنوار ج ٨ ص ٤٨ .

(٢) اعتقادات الصدوق ص ٨٥ .

(٣) النساء ٦٤ .

كالاعیاد والاقوات المتبركة- تأثیراً فی استجابة دعاء الداعین فكل من المكان المقدس والزمان الشریف یصبح شفعاً للدعاء الذي یقوم به الداعي فیؤثر فی اصابته الهدف المقصود... فأی غرابة فی صلاحیة نبی کریم ان یقع شفعاً مؤثراً فی استجابة الدعاء.؟
 فإذا كان العبد یقرن دعاءه بمكان شریف او زمان شریف لغایة التذرع بهما الی بلوغ حاجته كذلك یقرن دعاءه باسم النبی الکریم ویجعل جاهه العظیم شفیعاً الی الله فی استجابة دعائه . قائلاً : «اللهم انی اسئلك بجاه محمد وآله الطیبین ان تقضي لی حاجتی او تغفر لی خطیئتی». الامر الذي تجده بكثرة فی الادعیة المأثورة عن اهل البيت - علیهم السلام - .

فقد اصبح التوسل هو استدعاء الشفاعة من صاحب الجاه العریض عند الله ان يدعو له فی الاستجابة، وقضاء حاجته الی الله، وهذا لا یفرق فیہ بین میت وحي، اذ ان اولیاء الله احياء غیر اموات، وان ارواحهم الطیبة حول العرش یسبحون الله ویمجدونہ لا یفترون. ولا تحسبن الذين قتلوا فی سبیل الله امواتاً، بل احياء عند ربهم یرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ویستبشرون بالذین لم یلحقوا بهم من خلفهم الا خوف علیهم ولا هم یحزنون. یستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا یضیع أجر المؤمنین» (١)

قال الامام الصادق - علیه السلام - : «ان ارواح المؤمنین لفي شجرة من الجنة یا کلون من طعامها ، ویشربون من شرابها ، ویقولون : ربنا اقم لنا الساعة ، وانجز لنا ما وعدتنا ، وألحق اولنا بأخرنا» (٢) .

قال رسول الله - صلی الله علیه وآله وسلم - لاصحابه يوماً : «حیاتی خیر لکم، ومماتی خیر لکم قالوا : هذه حیاتک نعم ، فكیف مماتک؟ فقال : أما حیاتی فان الله هدایکم بی من الضلالة وانقذکم من شفا حفرة من النار . وأما مماتی فان اعمالکم تعرض علی ، فما كان من حسن استزدت الله لکم، وما كان من قبیح استغفرت الله لکم . فقال له رجل من المنافقین : وكيف ذاك یا رسول الله وقد رمت ؟ فقال له رسول الله (ص) : كلا ، ان الله حرم لحومنا علی الارض فلا تطعم منها شیئاً» (٣)

(١) آل عمران : ١٦٩ - ١٧١ .

(٢) - الکافی - الفروع - ج ١ ص ٦٧ . بحار الانوار ج ٦ ص ٢٦٨ .

(٣) - بصائر الدرجات : ١٣١ . بحار الانوار ج ٢٢ ص ٥٥٠ .

وفى حديث آخر : «حياتي خير لكم تحدثون ونحدث لكم . ومماتي خير لكم، تعرض علي اعمالكم، فان رأيت حسناً جميلاً حمدت الله على ذلك ، وان رأيت غير ذلك استغفرت الله لكم» (١) **رواه كتابخانه مدرسه فيضيه لسي**

قال سماعة: سمعت ابا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «ما لكم تسوؤن رسول الله (ص)؟ فقال له رجل : جعلت فداك وكيف نسوؤه ؟ فقال: اما تعلمون ان اعمالكم تعرض عليه، فاذا رأى فيها معصية الله ساءه ، فلا تسوؤا رسول (ص) وسروه» (٢)

وقال الامام الصادق - عليه السلام - : «ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يعرض عليه اعمال امته كل صباح ، ابرارها وفجارها ، فاحذروا . وهو قول الله عز وجل : «وقل اعملوا افسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون» (٣) والمؤمنون هنا هم الائمة عليهم السلام .



اعتراضات :

نجابه باعتراضات يوجهها أصحاب الفكر الوهابي، وربما تكون لبعضها جذور من عهود غابرة أثارها المهترجون في هذا العصر ، ونحن نعرض هذه الاستشكالات على صعيد النقد الموضوعي ، باحثين عن قيمتها في مجال النظر والاستدلال .

وقبل ان نعرض ذلك نكرر القول بان الشفاعة التي نروم اثباتها او الدفاع عنها - كعقيدة اسلامية مقدسة - لاتعدوان تكون دعاء وابتها لايقوم به ذوو الجاه العريض عند الله تعالى فيستجيب دعاءهم في غفران ذنوب المشفوع لهم ، فالشفاعة والاستغفار شيء واحد ، وهي احدى وسائل التوبة والاناة والاستغفار ، وكل ذلك في جنب رحمة الله الواسعة شيء يسير . وقل لعبادى الذين اسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً . ولسوف يعطيك ربك فترضى .

يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة .

(١) - بصائر الدرجات : ١٣١ . بحار الانوار ج ٢٢ ص ٥٥١

(٢) - بحار الانوار ج ٢٢ ص ٥٥١

(٣) معاني الاخبار : الصدوق . ص ١١١ بحار الانوار ج ٢٣ ص ٣٤٠ .

الاعتراض الاول :

ان سنة الله جرت بنظم الامور واتساق العلل والمعاليل بصورة عامة : اي ترتب المسببات على اسبابها الخاصة ، من دون اي تخلف او اختلاف . هذا ما قضى الله في نظام الخلق ، وقضاء الله كائن لا محالة «لا راد لقضائه» .

«فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً» (١)
وقد قال تعالى : «هذا صراط على مستقيم ، ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين وان جهنم لموعدهم اجمعين» (٢)
فلو اثرت الشفاعة في رفع العقاب عن جميع المجرمين كان ذلك تخلفاً صريحاً فيما حكم به رب العالمين من ترتب العقاب على الاجرام ، وان اثرت في رفعه عن البعض دون البعض كان ذلك اختلافاً واضحاً في قانون النظم العام .
نعم كانت الشفاعة تؤثر في الاحكام البشرية المنبثقة عن الاهواء والمصالح الوقعية غير الثابتة ، اما القوانين الالهية الحكيمة فانها مبتنية على حكم ومصالح ثابتة غير قابلة للتبدل والتحويل .

والجواب :

ان الشفاعة وتأثيرها في رفع العقاب ايضاً من سنة الله الجارية في خليقته . فكما كانت لتحقق العقاب اسباب خاصة ، كذلك كانت لرفعه ايضاً اسباب منها الشفاعة والتوبة والاستغفار : «قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً» (٣) فلا بد للمغفرة من اسباب ايضاً وفق قانون النظم العام .
والعلة في تأثير الشفاعة والتوبة والاستغفار في رفع العقاب المتوعد هو تبدل الموضوع رأساً على عقب ليصبح القاصر بالغا والقيح مقبولاً .

ان لله اسماء حسنى فادعوه بها ، كل اسم هو مظهر لصفة من صفات الله العليا ، فاذا حكم على العاصي بالعقاب اقتضاء لصفة قهاريته ، فسوف يغفر له او ينجيه من العذاب اقتضاء لسمة رحمانيته . كل صفاته تعالى تعمل في توجيه عوالم الخلق والملكوت

(٣) الزمر : ٥٣ .

(٢) الحجر : ٤٣ .

(١) فاطر : ٤٣ .

وتسيير مناهج العدل والفضل والرحمة . فالعاصي المتمرد يعاني شقاءه في العذاب وفق قانون العدل في الجزاء . اما النائب المستغفر المستشفع فينعم برحمة الله الواسعة ، تلك سنة الله جرت في خلقه لاتبدال لسنة الله .

الاعتراض الثاني :

الشفاعة بمعناها المعروف - حمل الشافع المشفوع - عنده على التغيير من عزمه وفسخ ارادته بشأن المستشفع - مستحيل على الله ، نظراً لان فسخ العزيمة اما ان يكون عن خطأ تنبه له بعد غفلته عنه ، فراى العدل في خلاف عزمته الاولى بفضل ارشاد الشفيح . او لتفضيله مصلحة ارتباطه بالشفيح على العدالة التي كان عازماً على تنفيذها . وكلا النوعين ممتنع في حق الله ، العالم بحقيقة المصالح ، وان احكامه وقضاءه وفق المصالح لاتتغير . لان ارادته تعالى تكون على حسب علمه ، وعلمه ازلي لايتغير (١) .

والجواب :

ان الشفاعة - كما سبق معناها - : دعا - وابتهاج الى الله ان يغفر ذنب عبده النائب بفضله ورحمته - وليست تحميلاً على الله في فسخ عزمته ، بل تبديل لموضوع حكمه السابق ، من حالة الى اخرى ، فيتبدل حكم الله حسب تبدل الموضوع ، فمن عاص مقصر الى تائب نادم ، ومن تائه حائر الى واجد للوسيلة الناجحة .

وكلا الحكمين قضاء الله منذ الازل من غير تبدل في حكمه ولا تغيير في قضاءه فالارادة الازلية بغفران ذنب المستغفر المستشفع هي قد تعلقت به عقيب استغفاره واستشفاعه بجاه نبي رحمته ، «يمحوها الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب» (٢) فالمحول للقضاء السابق واثبت اللاحق انما هو حسب الاسباب الظاهرة ، اما ارادته الازلية فهي ثابتة في ام الكتاب لم يعرضها اي تبدل او تغيير . وبهذا نفسر النسخ والبداء والمحو والاثبات .

بِالْحَبِّ حَبْلَةٌ